أثر الثقافة العربية في العلم والعالم

بقلم أحمد حسن الزيات

٣

لم يشهد الشرق فاتحا قبل العرب يفتح البلدان والأذهان ويستعمر الألسنة والافئدة في وقت معا . فاليونان والرومان غزوه بالسيف والحضارة والعلم ، ولبثوا الحقب الطوال يمكنون لأنفسهم فيه ، ويطبعون آثارهم في أكثر نواحيه ، حتى اذا وهنت البدالقوية ، وأمكن من يده السلطان الغريب ، تنكرت المعارف وعفت الآثار وكان ما كان من ملك وملك ثم انقضى فكأن القوم ما كانوا !

ولكن العرب تدول دولتهم وتزول صولتهم ويعمل الفاتح الغشوم في رجالهم السيف ، وفي آثارهم النار ، حتى اذا ظن انه ملك ، وان عدوه هلك ، اذا بالعرب يقولون له في كل مكان وفي كل انسان : انا هنا ! واذا بالمغير المزهو يستسلم لهذه القوة الخفية فتحتل خواطره ومشاعره وكيانه ، ثم ينقلب على الرغم منه داعيا لخلافتها ناشرا لثقافتها !

فهل رأى التاريخ مثيلا لهذه الأمة التي حكمت الناس ظاهرة ومضمرة ؟ وهل رأى التاريخ ضربا لهذا الشعب الذي طبع فيما كثيرا من الدنيا بطابعه منذ ثلاثة عشر قرنا ثم لا يزال هذا الطابع على رغم العوادي جلي السمات واضح الدلالة ؟ فسلطان العرب على العالم قد زال منذ قرون ، ولكن ثقافتهم ما تنفك قائمة في الشرق الأسلامي حتى اليوم ! ومن الشبيه باللغز أن تفصل اثر هذه الثقافة في أفريقيا وآسيا ، فان من خضع للعرب من شعوب هاتين القارتين قد انقطع ما بينهم وبين أسلافهم من صلات اللغة والأدب والعقائد والتقاليد ، فأصبحوا لا يتكلمون ولا يفكرون ولا يعتقدون ولا يعيشون إلا بما للعرب من جميع ذلك . وذو الحيوية القوية منهم كالفرس استطاع بعد حين أن يجمع قلول لغته من بد البلى فأعادها الى الحياة بعد ما اقتبس لها من الألفاظ العربية ما يشارف الستين في كل مائة ، فضلا عن استمداده من العربية الروح والحرارة والبلاغة والخط . ومع ذلك ظل الفرس ومن قبل فعلهم يستعملون العربية الى وقت قريب في التأليف والتعليم والأدب كما كان الأوربيون في القرون الوسطى يستعملون اللاتينية لمثل ذلك . على أن الثقافة العربية لم تقف في الشرق عند حدود الفتوح وانما تجاوزتها الى حدود الهند والصين على يد التجار من العرب ، والمهاجرين من الفرس ، والغازين من الترك والمغول ، فالعرب نقلوا في رحلاتهم التجارية طائفة كبيرة من المعارف الى تلك البلاد ظنها الأوربيون فيما بعد أصيلة فيها . وقد ألمع العلامة سديو الفرنسي صاحب كتاب تاريخ العرب في التدليل على هذا الرأي . والرياضي النابغ محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة ٤٣٠ نقل الى الهند اثناء اتصاله الطويل بمحمود الغزنوي خلاصات قيمة من العلوم العربية نقلها الهنود الى السنسكريتية في منثورات من النظم . وكوبلاي خان المغولي أدخل في الصين طب العرب وبعض ما ألف من الكتب في بغداد والقاهرة . ثم أخذ الفلكي الصيني (كوشيوكنج) ازياج ابن يونس المصري من جمال الدين الفارسي ونشرها في بلاده

وبينما كان الشرق من أدناه الى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم ، كان المغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموحة ، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمه حصون الأمراء المتوحشين من بعض الكتب ، وما يعلمه بعض الرهبان الماكثين من قشور العلم . وانقضى القرن التاسع والقرن العاشر لليلاد وأولئك الأمراء في تصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء ، وهؤلاء الرهبان في ديورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب القديمة لينسخوا على صفحاتها الممحوة كتب الدين ، حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون فرأوا من وراء هذا الظلام الداجي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق ، فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من أسبانيا ، وان النور قبس من نور بغداد ، استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الانساني فطلبوا العلم فلم يجدوه الا عند العرب . ففي سنة ١١٣٠ أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف (ريموند) وأخذت تنقل جلائل الاسفار العربية إلى اللاتينية وأعانهم على ذلك اليهود ، فبعثت هذه الترجمة في أوربا الخامدة شعورا لطيفا وروحا طيبة ، وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلثمائة كتاب أحصاها الدكتور (لكلارك) في كتابه تاريخ الطب العربي وأحصاها غيره أربعمائة . وكان أكثر ما ترجم في هذه العهود كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا وما نقل الى العربية من اليونانية لجالينوس وابقراط وافلاطون وأرسطو واقليدس الخ ... وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجا للتعليم في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة ، واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر ككتب ابن سينا في الطب مثلا ، وكان ابن رشد هو المهيمن المطلق على الفلسفة في جامعات فرنسا وايطاليا وبادوا على الأخص ابتداء من القرن الثالث عشر . ولما أراد لويس الحادي عشر

تنظيم التعليم سنة ١٤٧٣ ادخل في المنهج فلسفة ابن رشد وارسطو فلولا وجود العرب في الأندلس وترجمة علومهم في صقلية والبندقية لما تهيأ للقرون الوسطى أن تظفر بكتاب من كتب اليونان ولا أثارة من علم العرب . ولما تيسر لطلاب العلم من الأوربيين أن يردوا مناهله الصافية في جامعات اشبيلية وقرطبة وطليطلة . قال المؤرخ الانجليزي جورج ملر في كتابه فلسفة التاريخ : « ان مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم . وكان الطلاب الأوربيون يهرعون اليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة . وكذلك أصبح جنوب ايطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة إلى أوربا . وممن ورد تلك المناهل الراهب جربرت الفرنسي . فانه بعد ان تثقف علوم اللاهوت في (أوريلاق) مسقط رأسه جاب عقاب (البيرانس) والوادي الكبير حتى ورد اشبيلية . فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين . ثم ارتد الى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر . ولكنه ارتقى الى سدة البابوية سنة ٩٩٩ باسم سلفستر الثاني . كذلك تخرج على علماء قرطبة (شانجه) ملك ليون واستوريا . وأولع بعض أمراء ايطاليا بالعربية وعدوها لغة الأدب العالي . وأوصى قومه الراهب (روجر بيكون) الانجليزي في كتبه بتعلم اللغة العربية وقال : « ان الله يؤتي الحكمة من يشاء . ولم يشأ ان يؤتيها اللاتين . وانما آتاها اليهود والاغريق والعرب » وروى فولتير ان جميع ملوك الفرنج كانوا يتخذون أطباءهم من العرب واليهود . وذكر مثل ذلك (جيبون) في الفصل الثاني والخمسين من كتابه تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها . وزاد عليه أن مدرسة (سالرنو) التي نشرت الطب في ايطاليا وسائر أوربا كانت غرس العبقرية العربية . وقال المسيو ليبري (Libri) : « تأخر العرب من التاريخ تأخر نهضة الآداب في أوربا قرونا طويلة » . وتلك حقيقة لا ريب فيها . فان العرب كانوا الحلقة التي لا بد منها لصلة المدنية القديمة بالمدنية الحديثة . فهم الذين وقفوا أوربا على مخلفات اليونان وغير اليونان . وهم الذين عالجوا هذه العلوم بالتجربة والاختبار لا بالحفظ والتكرار . حتى جلوا غامضها ونقدوا زائفها ورفعوا مباحثها على أساس من النظر الصحيح . ومالنا نحمل تبعة الكلام وتتعرض للنقض والابرام وقد كفانا الأمر ثقاتهم ومصنفوهم ؟ قال المؤرخ الانجليزي (ولز) في كتابه ملخص التاريخ : « هب العرب يظهرون ما خفي من مواهبهم فبهروا العالم بما أتوه من معجزات العلم وأصبح لهم السبق بعد اليونان فبعثوا كتبهم من مراقدها . ونفخوا فيها من روحهم الحياة والقوة . فجعلوا بذلك سلسلة العلوم متصلة الحلقات عكسة الرد لا يمسها انقطاع ولا وهن . فاذا كان اليونان اباة الاعتداد العلمية على الصراحة والامانة والوضوح والتقدم فان العرب مربوها ومنمجانا العلم والمدنية الا عن طريقهم لا عن طريق اللاتين » وانكر كاتب من الانجليز فضل اليونان على العلم الحديث وعزاه كله الى العرب قال : ان العلم الحقيقي انما دخل أوربا عن طريق العرب لا عن طريق اليونان . فان الرومان أمة حربية . واليونان أمة ذهنية . وأما العرب فكانوا أمة علمية .

لبث الفرنج يأخذون في طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب . أكثر مما أخذ العرب في هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان . فان من اليسير أن نعد كثيرا من العرب قد بذوا أساتذتهم من اليونان قبل انقضاء قرن على الترجمة . ولكن من المستحيل أن نعد من الفرنج مؤلفا واحدا قبل القرن الخامس عشر كان يعمل شيئا غير النقل عن العرب أو الجري على أسلوب العرب . فروجر بيكون ، وليونار دبيز . وأرمان دفيلنوف . وريمون لول ، وهرمان الدلماشي . وميخائيل سكوت ، ويوحنا الاشبيلي ، وسان توما ، وألبير الجراند ، والفونس العاشر أميرقشتالة . لم يكونوا غير تلاميذ للعرب أو نقلة عنهم . قال مسيو رنان : أن البير الجراند مدين بعلمه كله لابن سينا . وسان توما مدين بفلسفته لابن رشد .

أسمعوا ياسادتي ما يقول (بترارك) شاعر إيطاليا العظيم ينعى على قومه تخلفهم في مضمار العلم وقعودهم عن مجاراة العرب ، والشاعر من رجال القرن الرابع عشر فلا تجرم أن شهادته حجة : قال في لهجة مرة من الانكار والتعجب : —

« ماذا ! ماذا ! أبعد ديموستين يستطيع شيشرون أن يكون خطيبا . وبعد هوميروس يستطيع فرجيل أن يكون شاعرا ، وبعد العرب لا يستطيع أحد أن يكتب ؟ لقد ساوينا الاغريق غالبا وشأونا هم حينا . واذا شأونا الاغريق فقل شأونا جميع الأمم ولكن ماعدا العرب ! يالله جون ! يالله ضلال ! يالعبقرية إيطاليا الراقدة أو الخامدة ! ! »

هذه ياسادتي صفحة واحدة من صفحات الثقافة العربية تعب فيها الايجاز وضاق عنها الوقت . ظهر فيها أثرها العلمي العالمي على عمومه وإجماله ناصع البيان مشرق الدلالة . وتراءى من خلالها الذهن العربي ساطع العبقرية باهر الجلالة . فهل من الاخلاص للانسانية والمدنية أن نترك هذا التراث الفكري العجيب يذهب

(البقية على صفحة ١٥)